ذكريات في السودان

وجه المشرف على ركن السودان في الاذاعة اللاسلكية المصرية الى حضرة صاحب العزة الاستاذ الكبير والشيخ المحترم خليل بك ثابت السؤال التالي :

« ما هي ذكريات عزتكم الصحفية عن السودان » ؟ فتفضل مشكوراً بالجواب التالي :

ذهبت الى السودان في فبراير ١٩٠٣ ، لأسس مطبعة لطبع مطبوعات حكومة السودان وأنشىء مع المطبعة جريدة باللغة العربية ، والإثنتان — المطبعة والجريدة — تابعتان لإدارة المتحف والمنتزه في القاهرة ، ووفقت الى تأسيس المطبعة فبدأت عملها في شهر يوليو من تلك السنة . وكان عمالها الأولون من مصر ، وبعد ذلك تيسر لي اختيار جماعة من الشبان والصبيان السودانيين فعلمتهم أعمال الطباعة المختلفة ، ونجحوا نجاحاً عظيماً حتى أنه لما زار السير ريجنلد وينجت السردار والحاكم العام في ذلك الحين المطبعة أعجبه جداً ما شهد من مهارتهم مع صغر سنهم وحداثة عهدهم بالعمل . واستمر العمل في هذه المطبعة الى سنة ١٩٢٤ ، فاضطررنا الى بيعها لشركة ماكوركدايل الانجليزية بعد ما عملنا أكثر من عشرين عاماً ، بنينا في أثنائها مبنى المطبعة القائم الآن على ميدان عباس

أما الجريدة فصدرت أولاً باسم « جريدة السودان » في سبتمبر ١٩٠٣ ، وطبعنا العدد الأول منها بحضور سعادة السيد علي المرغني باشا والأمير الاي ستانتون بك مدير الخرطوم في ذلك الحين وهو نجل الجنرال ستانتون الذي كان قنصلاً عاماً لبريطانيا في مصر في عهد الخديو اسماعيل وهو الذي توسط في شراء أسهم قناة السويس التي كانت للخديو اسماعيل وقد اشتراها بأربعة ملايين جنيه بطلب المستر دزرئيلي رئيس الوزارة البريطانية في ذلك الحين . وكان الثمن أربعة ملايين جنيه على ما أذكر الآن ، وبين الذين حضروا حفلة افتتاح الجريدة « جريدة السودان » المرحوم البكباشي مبروك فهمي مأمور الخرطوم (بعد ذلك اللواء مبروك باشا فهمي) — وجمهور من أعيان السودان والشبان المثقفين . وبعد ما

صدرت الجريدة بالعربية في أربع صفحات نحو عامين أضيفت إليها صفحتان بالانجليزية بناء على طلب الحاكم العام لكي يطلع كبار الموظفين الانجليز على ما ينشر في باب النقد وباب الاقتراح وغيرها .

وفي صيف ١٩٠٧ اضطررت الى مغادرة السودان بسبب حالة زوجتي الصحية وتركت العمل في يد المرحوم الاستاذ لبيب جريديني والاستاذ اسكندر مكاريوس من ابناء أصحاب العمل

وكانت هذه المطبعة وهذه الجريدة أول مطبعة وأول جريدة أنشئت في ذلك العهد الى الجنوب من القاهرة . ولما زار أصحاب الصحف المصرية ومعاملها الخرطوم مع المرحوم اللورد كرومر للاحتفال بسكة حديد عطبرة — بورسودان وميناء بورسودان — زار حضراتهم مطبعة السودان وكان إعجابهم شديداً بنظام المطبعة ، وحسن أدواتها وآلاتها ، وقد جلبت كلها بنظام واحد من أحدث معامل بريطانيا .

وعرفت في من عرفت في السودان في أثناء اقامتي فيه — ولقد لقيت كل عناية ورعاية من الشعب السوداني في جميع طبقاته — المرحومين الزبير باشا رحمت العباسي والشريف يوسف الهندي والشيخ ابراهيم ناظر الجعليين والشيخ الطيب هاشم مفتي السودان وشقيقه شيخ العلماء الشيخ أبو القاسم هاشم ومحمد بك حسن سر تجار أم درمان والشيخ مدثر الحجاز ولأحمد عثمان القاضي وكثيرين غيرهم . ولم يكن سعادة السيد عبد الرحمن المهدي باشا قد برز الى الأمام كما فعل بعد ذلك

وكانت كلية غردون في أول عهدها ، وكان ناظر القسم الثانوي فيها الأستاذ احمد هدايت بك والمدير العام لها والمعارف المستر جيمس كرى (بعدئذ السير جيمس كرى)

وعرفت من رجال حكومة السودان في ذلك الحين علاوة على الحاكم العام والسردار السير ريجنلد وجت والكولونيل نيسون السكرتير الملكي (السكرتير الاداري) والمستر بونهام كارتر السكرتير القضائي (السر انجار بونهام كارتر فيما بعد) والمستر وايزي ستيري قاضي القضاة المدنيين والكولونيل فيبس وبرنارد باشا السكرتير المالي وهنري باشا وآمر باشا وغيرهم من كبار الضباط والحكام الانجليز والمرحومين الشيخ محمد شاكر قاضي قضاة السودان الأول ونسيبه الشيخ محمد هارون وقد خلفه فيما بعد ، والشيخ محمد مصطفى المراغي قاضي القضاة

وشيخ الجامع الأزهر فيما بعد وغيرهم من رجال الشرع المصريين والسودانيين ، وسعيد شقير باشا ، وشاهين جرجس بك ، وابراهيم دينري بك ، وصموئيل عطية بك ، ونعوم شقير بك (مؤلف كتاب تاريخ السودان) والميرالاي محمد غالب بك ونخلة تادرس بك وغيرهم من كبار الموظفين الشرقيين . ولم يكن الشبان السودانيون قد شرعوا يتولون المناصب الكبيرة لقرب عهدهم بالتعليم المدرسي ، وقد أصلح هذا الأمر فيما بعد .

ومع ان الأحكام في السودان كانت في ذلك العهد في مظهرها الخارجي شبيهة بالأحكام العسكرية — وإن لم تكن كذلك — فقد كانت الجريدة حرّة فيما تكتب وما تنشر ، لا رقابة عليها من جانب الحكومة بل كانت تنشر أحياناً أموراً لا يرتاح اليها رجال الحكومة ، وهذا ما أذكره بالشكر والتقدير للسير ريجنلد وينجت باشا ، والسياسة الرشيدة التي كان يجري عليها ، وأذكر أنني مرة أفشيت عن غير قصد سر حملة عسكرية كبيرة كانت مرسلة من الخرطوم الى بلاد سلطان نيام نيام لتأديبه وتأديب قبائله فحبطت الحملة وضاعت أموال كثيرة ، وأقلق بال وزارتي الحربية والخارجية في لندن واللورد كرومر في القاهرة ، ومع ذلك لم يجاوز موقف حكومة السودان في الموضوع عتباً رقيقاً من جانب الحاكم العام لي ، وايضاحاً للضرر العظيم الذي أحدثه نشر الخبر في الجريدة

وكانت اقامتي في الخرطوم مدة خمسة أعوام مقرونة بالسرور والاغتباط بما لقيت من رعاية رجال الحكومة من شرقيين وأوربيين وما أصبت من حسن ظن اخواني السودانيين ولا سيما أعيانهم وكبراءهم وذوي الرأي منهم .

وما زلت متعلقاً بالسودان ، أحب كوطن من أوطاني العربية العزيزة ، وقد حافظت على صلتي المادية به ، فإن لي أرضاً وبيتاً في الخرطوم ، أبيت بيعهما ، وآثرت ابقاءهما في حيازتي كصلة وثيقة لي بالسودان . وقد زرت السودان بعد تخلّي عن العمل فيه مرتين كانت أخيرتهما في سنة ١٩١٣ ، فرأيت فيه مظاهر التقدم الكبير في شوارع الخرطوم وميادينها وما جدّد من شوارع أم درمان والكبري الجديد على النيل الأزرق ، والمعدية البخارية بين الخرطوم وأم درمان ، والترامواي الكهربائي في الخرطوم وأم درمان ، وعملية الكهرباء في الخرطوم ، الى آخر مظاهر الاصلاح التي يشهدها المرء الآن ويشهد غيرها في تينك المدينتين وسائر مدن السودان . وهذا علاوة على مظاهر التقدم الأدبي والعلمي والثقافي في طبقات الأمة السودانية

وإني لسأل الله أن يتيح لي زيارة هذا الوطن لأشهد فيه أضعاف ما شهدته في زيارتي الأخيرة واجياً للسودان العزيز وأهله الكرام اطراد التقدم والنجاح في جميع ميادين الحياة والعمل .